الشيب والشباب

في شعر الشريف الرضي

بقلم الاستاذ عز الدين آل ياسين

— ٤ —

وما سبب هذا الشيب ؟

ولا يزيد سببه العلمي المقرر في وظائف الاعضاء ، فذلك سبب لا يهم الاديب ولا يمتعه ، بل سببه الذي يمليه الخيال وهو أدنى إلى الجدة والجمال ، وللشريف في اختراع علل الشيب افتنان الشاعر الذواق .

فهو يعزو شيبه الى الغواني ودهن وامتناعهن :

يذم البيض من جزع مشيبي ... ودل البيض اول ما أشابا

خداع الشباب فقل لي اين اطلبه

وازور عن نظري البيض الرعاديد

بيض وسود ترأمي لا يسلطها

على الذوائب إلا البيض والسود

وقد يرد تبعته الى الزمان وصروفه واحزانه :

راحت تعجب من شيب ألم به ... وعاذر شيبه التهام والاسف

ولا تزال هموم النفس طارقة ... رسل البياض الى الفودين تختلف

ولم يلبثهن غربان الليالي ... نعيتاً ان أطرز غراب رامي

وما زال الزمان يحيف حتى ... نزعت له على مبيض لبامي

ورأت وخط بياض طارق ... وخط التهام قلبي فوخط

ما لها تنكر مع هذا الشجا ... وقعات الشيب بالجعد القطط

فهو لم يشب اذن من طول السنين وتقادم العمر ، كيف وقد وخطه الشيب والغصن رطيب ، ان هذا الشيب الا غبار حروب الدهر غطى سواده :

وما شبت من طول السنين وانما

غبار حروب الدهر غطى سواديا

وما انحط اولى الشعر حتى نعيته ... فبيض هم القلب ما في عذاريا

ولا عجب اذا افضى المشيب الى رأسه وهو في أعلى قباب الشباب ، فالرياح اذا اشتدت قصفت أعلى الغصون الرطاب :

تخطى المشيب الى رأسه ... وقد كان أعلى قباب الشباب

كذاك الرياح اذا استلأمت ... تقصف اعلى الغصون الرطاب

فنون التشبيه

وفي هذا الباب ـ الشيب والشباب ـ معرض لكثير من فنون التشبيه التي تمليها الصناعة الفنية التي ألهمها الشريف الرضى الهاما فكانت فيه ملكة راسخة واضحة المعالم بينة اللمحات في معظم مجهوده الأدبي

من ذلك انه يشبه الشيب بالبازي المنقض على الرأس لينسل منه الى المهجة يتأكلها فاذا رآه غراب الرأس استولى عليه الذعر فطار :

وطعم لبازي الشيب لا بد مهجتي ... أسف على رأسي فطار غراب

وقد يشبه الرأس الأسود بالفرس البهيم والبياض الذي يتخلله بالغرر والحجول :

كبت البهيم واعلاق الهوى جدد ... واخلقتك حجول الشيب والغرر

الذهبي « رأيت الجزء الذي جمعه في فضائل معاوية وفيه اشياء كثيرة موضوعة ، والآفة فيها من غيره ... قال ابن النديم ... وكان يقول انه شاعر مع عاميته قلت : هذا اوضح الأدلة على ان ابن النديم رافضي لأن هذه طريقتهم : يسمون أهل السنة عامة وأهل الرفض خاصة [١] . وذكر جزأه في فضائل معاوية جلال الدين السيوطي نقلا عن غيره [٢] . وأرخ وفاته ابو الفرج ابن الجوزي ولم يشر الى هذا الأمر من سيرته [٣] وجاء في كامل ابن الاثير في حوادث سنة ٣٤٥ بصورة « ابي عمر والزاهد » والصواب ـ كما ذكرنا ـ ابو عمر الزاهد ، وذكره ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة لسنة ٣٤٥ وممن أحسن ذكره مع اختصار كتابه ابو الفداء في تاريخه . (يتبع)

[١] لسان الميزان « ج ٨٥ ص ٢٦ »

[٢] البغية ص ٦٩

[٣] المنتظم « ج ٦ ص ٣٨٠ »

ويشبه الشعر الابيض بالصبح ، وسواد الذوائب بالليل ويرد هذا التشبيه كثيراً في شعره ، وهو يظهر الضيق بهذا الصبح الذي يظلم به النهار ، ويأسى على ذلك السواد الذي يضيء به الليل :

ايها الصبح زل ذميماً فما اظ ... لم يومى من بعد ذاك الظلام

ويعود الى هذا الصبح فيخبره في لهجة الحانق عليه ان شمسه المثيرة قد ارمضت فؤاده فما احوجها الى ظل يذود عنها وقدة هذا الارماض ، وهل لحرارة هذه الرمضاء الا ظل الشباب ، ولكنه ظل زائل كظل الغمام لا يكاد يظهر حتى يختفي :

أرمضت شمسك المثيرة فؤادي ... فمن لي بظل ذاك الغمام

ويعود الى هذا التشبيه باسلوب آخر فيشبه انتشار البياض في الشعر الفاحم بشعشعة ضوء الصباح في الليل البهيم :

وشاعت البيضاء في مفرقي ... شعشعة الصبح وراء الظلام

ويفدي سواد شعره بسواد عينيه وسويداء فؤاده :

لو يفتدى ذاك السواد فديته ... بسواد عيني بل سواد ضمائري

ويفدي بياض الشيب للبياض الاول أي بياض الوجه قبل ابقائه ثم يتمنى لو لم يطلع الصبح وبقي ليل الشباب يد الدهر :

ليت بياضاً جاءني آخراً ... فدى بياض كان لي اولا

وليت صبحاً ساءني ضوءه ... زال وابقى ليله الأليلا

ويوازن بين بياض الشيب وسواد الشباب ، فيأخذ على لون الشيبة انه ناصل زائل على حين ان الشيب ساطع ناصع ، ويدعي ان الشيب احسن اي من حيث انه ينزع بصاحبه الى النضج والهدوء والوقار واستتمام الرجولة واستكمال ادواتها وشاراتها ، ولكنه يابس العود جاف الورق وبضده الشباب النضير وغصنه الطري ، ففيه غضارة وحرارة ليس للشيب منها نصيب مذكور ، ثم يقيس هذا السواد والبياض على سواد العين وبياضها ، فني العين كلا اللونين ولكنها لا تنظر إلا باحدهما :

لون الشيبة انصل الالوان ... والشيب جل عمائم الفتيان

فالشيب إحسن غير ان غضارة ... للمرء في ورق الشباب الآني

وكذا بياض الناظرين وانما ... بسوادها تتأمل العينان

ويتكرر تشبيه الشيب بالعمامة في مواطن عدة ، كما انه يكرر تشبيه الشعر يغزوه البياض بالنبت يعتريه الذبول :

فيا حادي السنين قف المطايا ... فهن على طريق الاربعينا

وان الرأس بعدك صوحته ... بوارح شيبة فغدا جبينا

كان الشباب الذي انضيت منديله ... عقب الخميلة لما صوح الزهر

وهو يرى صفقته خاسرة إن يبيع السواد بالبياض والبهيم بالأغر :

ما للبياض والشعر ... ما كل بيض بغرر

صفقة غبن في الهوى ... بيع بهيم بأغر

وقد يعد الشيب صمتاً للسيف الصدى ، او لظى نار بعد الدخان وهو لا يرى المشيب الا ظالماً مسيئاً متمتراً في العطاء بعكس وقد صقل السيف بعد الصدا ... وبان لظى النار بعد الدخان

الشباب ، ويرى كل ما تسلفه الليالي من متاع الشبيبة مردودا عليها في ايام الشيب :

شبابي ان تكن احسنت يوما ... فقد ظلم المشيب وقد اساءا

ويا معطي النعيم بلا حساب ... اتاني من يقترني العطاء

متاع اسلفتناه الليالي ... واعجلنا فاسرعنا الإداءا

ترى ماذا يعني بهذا المتاع الذي اسلفته الليالي اياه ؟ لقد يخيل الي من يحمل الكلام على ظواهره ويعمى عن الخفي من بواطنه انه يقصد لذات الشباب الآثمة ، ولكنه ينفض عن ازاره العفن هذا الحسبان ، فيعلن في اكثر من مكان واحد انه كان في عافية من هذه المزالق في شبابه وفي مشيبه ، ولعله يعني بمشيبة سن الرجولة حين تجاوز الثلاثين ، والا فهو لم يفارق الحياة الا كهلا في السابعة والاربعين من عمره :

اغدرا يا زمان وياشباب ... اصاب بذا لقد عظم المصاب

يريد انه يغدر احد هذين قليل الحيلة ضعيف الوسيلة فكيف وقد اجتمعا على الغدر به :

وما جزعي لان عز التصابي ... وحلق عن مفارقي الغراب

فقبل الشيب اسفلت الغواني ... فلا وامالني عنها اجتناب

عففت عن الحسان فلم يرعني المشيب ولم يزقني الشباب

ويعلن احياناً ألاصلة لمشيب ألا نسان بأجله فقد يدركه الموت ولما يحلق الغراب عن رأسه :

يغم الفتى ذكر المشيب وربما يلقى انقضاء العمر قبل مشيبه

وقد يقرر ان مرارة الحياة وحلاوتها لا ترتبطان بشيب ولا شباب ففي كل من الطورين نصيب من هذه ومن تلك:

وما كل ايام المشيب مريرة ولا كل ايام الشباب عذاب

وقد يرحب بالشيب ينتشر في لمته انتشار الازهار البيض في الاغصان اللدن ، ويعلن انه لم يكن عاشقاً فيشفق من الشيب ان يقصى عنه الحبيب ، كما انه لم يغط بسواد شعره عيبا يخشى ان ينم عليه الشيب ، وانما يذم مطلع الشيب لأمر واحد هو انه يقلص الامل ويقرب الاجل.

ثم يعلو منصة الواعظ المحنك الحكيم فيجهر بالحقيقة التي لا مناص من الايمان بها وان كانت مرة، وهي ان بياض الشعر خطوة الى الموت، ولكن الحتف المقدور قد يفجأ بلا استيذان فيأخذ الانسان على غرة وهو سادر ، ومن انظره اجله ادركه الكبر ، ورددته الشيخوخة الى ارذل العمر ، الى هذه الصحراء الجافة التي لا يندبها لهو ولا جذل ولا يجملها نزوع ولا امل ، فيضيق من نفسه ما كان ينداح للمطامع الكبيرة والرغبات الضخمة والقصور والعلالي

من لم يعطه بياض الشعر ادركه
في غرة حتفه المقدور والأجل
من أخطأته سهام الموت قيده
طول السنين فلا لهو ولا جذل
وضاق من نفسه ما كان متسعا
حتى الرجاء وحتى العزم والامل

عز الدين آل ياسين

فاضل عباس مُعَلَّه
المحامي
مكتبه في النجف رقم التلفون ﴿ ٧٥ ﴾

من كتاب (النجف في ربع قرن)

الثورة النجفية سنة ١٩١٨

- أو -

قبس الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠

بقلم : الاستاذ السيد محمد علي كمال الدين

والآن نعرض عليك أيها القاري فصول هذه المأساة مع ما يتعلق بها ويتخلل فيها من مفاوضات واحداث وملابسات وآراء وأنباء محاولين ابرازها حقيقة تأريخية كاملة المناظر والاسباب والمسببات والنتائج :

١ — تفاقم الامر وتدبير الثورة

لقد تفاقم أمر الحزبين السياسي والدموي حتى بلغ عدد اعضاء الحزب الدموي المائتين من الشباب المسلحين بينهم بعض أولاد شيوخ النجف اضافة الى الشيخين كاظم صبي وعباس علي الرماحي وكانت كتل الحزب ثلاثا « ١ » كتلة كاظم صبي وعباس الرماحي « ٢ » كتلة الحاج نجم « ٣ » كتلة أولاد سعد الحاج راضي واكثر الكتل تحمساً الثانية فالثالثة ويظهر لنا ان الحاج نجم كان على علم من استخبار الانكليز بمقررات الحزب لذلك فاجأ الحزب بخطة نظمها واوعز الى جميع الاعضاء أن يجتمعوا عند منتصف الليل لتنفيذ خطة الهجوم على دار الحكومة تلك الخطة المقررة مبدئياً في جلسات سابقة متعددة فوافق قسم عظيم من الاعضاء واتفقوا أن يكون مقر اجتماعهم جبانة النجف قرب دار الحكومة على أن يستعملوا كوفيات بيضاء وهي زي الشرطة المحلية «شبانة» التي شكلها الانكليز فحضر منهم ما يناهز المائة على ان معظم الحضور فضلوا